مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 11 عدد: 2 السنة: 2022
ص: 156 - 168 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

تجربة الاستكانة في شعر الحب بين "عمر بن أبي ربيعة" و"قيس بن الملوح"

The Experience of Submissiveness in the Poetry of Love between "Omar Ibn AbîRabi'a" and "Qais Bin Al-Malouh

سارة سكيو[1] * / حياة مستاري[2]

sara sekkiou[1] / hayat moustari[2]

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة.

جامعة الحاج لخضر باتنة 1- الجزائر،

University of hadj lakhdar .batna1. algeria

sarah.sekkiou@univ-batna.dz[1] / hayat.moustari@univ-batna.dz[2]

تاريخ الإرسال: 2022/02/24	تاريخ القبول:2022/03/17	تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص البحث

تحوم مدارات هذه الدراسة حول خاصية الحب الخاضع للمحبوبة في الشعر الغزلي القديم، الماجن منه مع نماذج شعرية مختارة من ديوان عمر بن أبي ربيعة، والعفيف العذري من خلال مقطوعات من قصائد قيس بن الملوح؛ إذ سنقوم بمقاربة أشعار الشاعرين وفق مبادئ المنهج النفسي، موضحين فرق الاستكانة في الحب بين ما هو قابل للمتعة والمجون في الشعر العمري المملوء بشحنات غريزية محمولة على الرغبة بالخضوع لسلطة احتياج المرأة، وبين ما هو خاضع لمبدأ العذاب في الشعر العفيف العذري الذي رصدنا من خلاله الإسقاطات النفسية التي واكبها قيس بن الملوح لحظة إنتاجه لأثره الأدبي، من حنين وفقد ونحو ذلك من كسر عاطفي وجسدي.

الكلمات المفتاح : عمر بن أبي ربيعة، حب، رغبة، منهج نفسي، فقد.

Abstract :

This study revolve around the characteristic of love in the old yarn poetry, which is crazy with selected poetic models from the diwan omar bin Abi Rabia and Afif Al-Athary through pieces of poems by Qais bin Al-Maloh, where we will approach poems The poets in accordance with the principles of the psychological curriculum, the two hospitals the differences in love between what is funable and the imprisoned in the old poetry filled with erosian shipments based on the desire to submit to the

* سارة سكيو sarah.sekkiou@univ-batna.dz

authority of the need of women, and what is submissive to the principle of torment and consequences, Parting in the chaste and virginal poetry through which we monitored the psychological projections that Qais bin Al-Maloh accompanied at the moment of his production of his literary influence.

Keywords: Omer ibn Abi rabia, love, desire, psycological method, lost.

المقدمة

تباينت مضارب شعر الحب وموارده منذ الاستهلال الأول للمشاعر التي تجمع المحب وحبيبته، أي بين الأنا و الآخر ضمن ثنائية الرجل والمرأة؛ حيث بلغ صدى هذه الأحاسيس المحمولة على تيار الرغبة بين المتعة والاحتياج لتلبية الفقد العاطفي و الجسدي من قبل روادها الذين بلغوا نطاق التسامي، من خلال الإبداع في التعبير عن هذه المشاعر التي صارت هاجسا نفسيا يلازم فئة محددة من الشعراء الذين لم ينهلوا من مورد الأدب والشعر سوى أبعاده التي وجد منها في الأساس، ألا وهي التعبير عن وجدانهم العاطفي واختلاجاتهم الروحية المشحونة بعدة هواجس نفسية أرقت قلوب شعراء الغزل.

وتبعا لما جبلت عليه خاصية الحب الإنساني من متطلبات ورغبات تتمايز بين الشعراء الغزلي الطبع، برز في محطات النسيب بالمرأة شاعران مظروفان بتأثيرات بيئتيهما ودوافعهما النفسية التي حددت اتجاه الشعر الغزلي عند كل منهما, فالأول عرج على الاستكانة في الحب من خلال شعره الحسي القالب وفق دفقة انفعالية مشحونة بالرغبة المادية الجسدية في المرأة أكثر منها معنوية، وهو الشاعر الأموي العصر عمر بن أبي ربيعة صاحب مدرسة الغزل العمري الذي يسرد فيه الشاعر مغامراته الحسية والايروتيكية مع عشيقاته العديدات، أما الشاعر الثاني والمتزامن معه في العصر هو قيس بن الملوح المكنى بمجنون ليلى حيث يعتبر من أهم الشعراء الذين قصدوا شرخ النسيب البدوي الطبع والذي يعبر عن الحب الصادق التراجيدي ، حيث واكب هو الآخر بدوره تبعات الحب من خضوع واستسلام من خلال قصائده الشاعرية الغزلية العفيفة التي وجهها صوب حبيبته الوحيدة ليلى، محمولا على إبداع شعري من زاوية نظر الحب الأفلاطوني. وعليه نتساءل ما هي الاستكانة في الحب؟ وكيف كان طابع خضوع الحب في شعر الغزل عند كل من عمر بن أبي ربيعة وقيس بن الملوح؟

وللإبانة عن غموض هذه التساؤلات سنحاول ملامسة حالة الحب المستكين عند كل من الشاعرين، بغية إيضاح الفرق بين التجربة الشعرية الغزلية في التيار العمري الحسي وبين التيار العذري العفيف، معتمدين

على المنهج النفسي قصد مقاربة مجموعة من الأشعار المختارة للشاعرين باعتبار هاته القصائد وثيقة نفسية تمكننا من استجلاء طابع الحب الخاضع عند الشاعرين.

أولا –الخضوع في الحب عند عمر بن أبي ربيعة

1– المتعة والرغبة في الاستسلام للحب

إن الحب هو مادة الشعراء الغزليين الذين يسمون إبداعاتهم بطاقات انفعالية مجبولة على ضرورة تماس العلاقة بين الحب والحبيب، فالغزل" هو غرض من أغراض الشعر، موضوعه الحب والهيام، وقوامه ذكر المرأة، ووصف محاسنها الخلقية، ومفاتنها الجمالية" [1] أي أن الشاعر يتخذ من المرأة وما تثيره فيه من رغبة سواء الجسدية أو المعنوية مدارا أساسيا لنظم قصائده الشعرية والتي تكون في الغالب إزاحة يزيح بها عن مكبوتاته الشعورية واللاشعورية، حيث فعلت هذه الأخيرة بسبب الخضوع الطبيعي الذي تفرضه المرأة وينشده المبدع كرجل بغية بلوغ مراتب مختلفة في الحب..

تتغير قامات الاحتياج النفسي العاطفي عند المحب للمحبوب وفق تراتب في الوصل والفصل، أي في قابلية التمكن من قرب المحبوبة وفي نأيها وصدها، فالشعراء تحديدا عبروا عن لواعجهم وسعادتهم بإسقاط ما يخالجهم من تيارات نفسية على ما ينظمون من قصائد بغية التغزل بحبيباتهم طلبا للقرب أو إبداء للإعجاب بهن فـ" ليس عجيبا أن تقوم بين الأدب والنفس علاقة أو صلة، ما دامت النفس البشرية مصدر الأدب والمنبع الذي تصدر منه جميع الفنون"[2] فالشعر خاصة الغزلي منه يعتبر تساميا وتطهيرا يعلو بأحاسيس الشاعر وما يراوده من أفكار ورغبات لاسيما أن شعور الحب بكل أنواعه ودرجاته يجعل المبدعين في حالة من الفوضى النفسية فيصبحون في حالة من عدم التناغم الفكري لدرجة إدراجهم في مختلف الأغراض الشعرية الأخرى هدف الغزل والملاطفة مثل غرض الفخر والوصف والمدح ونحو ذلك.

يعد عمر بن أبي ربيعة حامل لواء الشعر الغزلي الحسي، حيث أن تجربته الشعرية كلها مبنية على مغامراته الغرامية مع مختلف النساء اللاتي صادفتهن عيناه، حيث" انصرف عن الأغراض الكثيرة إلى غرض واحد وهو الغزل، فلم يقل في غيره، وحين سأله سليمان بن عبد الملك: ما يمنعك من مدحنا؟ قال: إني لا أمدح الرجال وإنما أمدح النساء"[3] انه رجل معروف بقدره العالي من الوسامة والثراء مع خفة تعامله والجنس اللطيف مع استمالت قلوبهن، حيث بلغ من دهاء التعامل وحلاوة اللسان الأمر به أن صار محور حديث النساء في العصر الأموي ورغبتهن الموحدة فيه كرجل مثالي..

إن النساء المتعددات في حياة عمر بن أبي ربيعة دليل على دونجوانيته الطاغية وعلى كثير من القلوب المكسورة الحائرة التي خلفها وراءه وهو يتنقل بين ألوان النساء الأرستقراطيات منهن والجاريات العاميات، إلا أن هذا لم يدحض حقيقة بلوغ الشاعر مرتبة الاستكانة الخاضعة في الحب والتي يقصد بها الرضوخ والاستسلام للحبيب جسديا وروحيا، فالحب لا نطاق له لأن" عاطفة الحب ليست واحدة في سائر النفوس لتباين طبائعهم ومشاعرهم بتأثيرات بعضها صادر عنها، وبعضها فاعل فيها، نقصد تأثيرات المزاج والبيئة"[4] فخضوع العاشق للمرأة حدث لا مناص منه بل هو ضرورة حتمية تحرك الرغبة بين المحبين ، وتختلف احتياجات خضوع ذات الشاعر للمرأة باختلاف البيئة والنقص الذي تكمله المحبوبة بالنسبة لعمر بن أبي ربيعة.

إن السلاسة والتعود على التعامل مع الجنس اللطيف بالنسبة للشاعر جعل منه محترفا في إمكانية فهم ما تريده المرأة كامرأة، وأيضا في قدرته على كشف ماهية بؤرة النقص فيها حيث يكملها هو ويلعب على أوتارها، فيجعل من شخصه محط طلب النساء حسيا ومعنويا. ولو كان هو الخاضع له في معظم قصائده – كما أسلفنا الذكر– لم يمنعه هذا بأن يستمتع ويتلذذ بعيش جانب الرضوخ للمرأة وجعلها تعيش دور المطلوبة التي يحتاج لها طالبا حبها واهتمامها الخاص له، فقد مازج انقياده نحو المرأة بين ما هو معنوي وحسي جسدي غريزي فـ" أفلاطون بعد أن يحدد ماهية الحب يرى الناس فيه على قسمين، قسم لا يعبأ بغير المادة ولا يسعى إلا وراء الجسد، وقسم ينشد الجمال والأشياء الجميلة، وهو يسر سرورا عظيما فيما إذا وقع على روح نبيل في جسم جميل" [5]إن الرغبة مفتعلة والحاجة لما تملكه المرأة في ذروتها موجودة عند ذات الشاعر سواء نفسيا أو بيولوجيا، بل عند عمر بن أبي ربيعة ذهب الأمر لمزج هذه الكسور النفسية وفق علاج روحي وجسدي أي بمبادلته الحاجة الايروسية مع نساء ذوات سلطة حضورية وشخصية مكابرة مفعمة في ذات الوقت بجمال جسدي ترصعه مفاتن جذابة.

فمن شعره يقول:[6]

وكَـــمْ مِـــنْ قَتِيـــلٍ لَا يُبَـــاءُ بِـــهِ ذَمٌ	وَمِـــنْ غَلِـــقٍ رَهْنـــا إِذَا ضَـــمَّهُ مِنَـــى
مِـــنْ مـــآلِي ءِ عَيْنَيـــهِ مِـــنْ شَـــيْءٍ غَيْـــرِهِ	إِذَا رَاحَ نَحْـــوَ الجَّمْـــرَةِ البِـــيضُ كَالـــدُّمَى
يُسَـــحِّبْنَ أَذْيَـــالَ المُـــرُوطِ بِأَسْـــؤُقٍ	خـــــدَالٍ إِذَا وَلَّـــيْنَ أَعْجَازُهَـــا رِوَى
أَوَانِـــسٌ يَسْـــلُبْنَ الحلـــيمَ فُـــؤَادَهُ	فَيَـا طُـولَ مَـا شَـوْقٍ وَيَـا حُسْـنَ مُجْتَلَـى

مَـــعَ اللَّيْـــلِ قَصْـــرا رَمْيُهَـــا بِأَكُفِّهَـــا ثَـــلَاثَ أَسَـــابِيعٍ تُعَـــدُّ مِـــنَ الحَصَـــى
فَلَـــمْ أَرَ كَـــالتَّجْمِيرِ مَنظَـــرَ نَـــاظِرٍ وَلَا كَلَيَـــالِي الحَـــجِّ أَفْلَـــتْنَ ذا هَـــوَى

يعبر الشاعر من خلال أبياته عن نمط نفسي خاضع ومستسلم للرغبة بالاستمتاع بكذا رضوخ نحو إحدى النساء التي لمحها في موسم الحج، حيث استطاعت بجمالها وأنثوية حركاتها أن تكسر فيه حاجز الاكتفاء وعدم الحاجة، إذ لاحظها وتمعن في حسن جمالها حد العدول عن هدف الحج ومناسكه. فالحاجة بها واليها طاغية لدرجة لم يستطع أن يزيحها عن كاهل باله إلا وهو ينظم فيها قصيدته مستمتعا بهذا الاحتياج الذي يشهر به للعامة دون خوف، فهو" الذي فتح الغزل، ونهج العلل، وأعلن الحب وأسر، وأبطن به وأظهر"[7] فدهاؤه وقدرته العالية لنيل القبول من النساء سمحت له باستغلالهن عاطفيا وجسديا سعيا لنيل درجة أخرى من الاستمتاع في الحب، والذي يعجب له هو إدراك النساء نيته للتلاعب بهن ورغم هذا لا يبتعد عنه ابتعاد الصد القاسي، بل على العكس تماما إن رضوخهن وإعجابهن بحركاته وطريقته في التشبيب بهن فقد تفنن في طرق الحب وقصص المغامرات العاطفية مثلما لم يعهد أحد من قبل فتصريحه بأسماء النساء اللواتي عاش معهن فترات من الهيام والإعجاب ضمن شعره يدل على شجاعة وذكاء وحيلة طرقت قلوب كل الفتيات في عصره. .

إن ما يمر به عمر بن أبي ربيعة من تفاوت في عيش ملذات العشق يتماشى ضمن وتيرة متسارعة على عكس ما يعهد به في التدرج الخاص بمقامات الحب، فهو يطمح مباشرة لنيل عيش الرغبة الايروسية حتى وهو في موضع الاستعطاف للحبيبة والخاضع لتأثيرها، مما يلهمه لتخطي كل الحدود الاجتماعية والدينية في سبيل الظفر بما يصبو إليه من متعة مرافقة للتعامل مع النساء، حتى وان عنى هذا أن يتصرف بطيش وصبيانية في مواقف صارمة فـ" لا شيء يشبه العشق في عنفوان نشأته، إذا هجم هذا المستبد القاهر.. ارتعدت منه الفرائض، وحصر اللسان، واختبل العقل، وخلا الطريق أمامه.. وصل إلى القلب بوثيقة واحدة، أو بوثبات متعددة"[8] تماما هذا الذي تفطن له الشاعر وهو يقلب صفحات مغامراته مع الغواني من النساء واللاتي إن اختلفن في الطباع والمظهر تماثلن كلهن في كونهن يضعفن أمام طرقه في الاهتمام بهن. ولو أردنا التعمق في سبب تعامل الشاعر مع الخضوع لسيطرة المرأة في بعض الأحيان التي فعلا يستطيع فيها التغلب عليها؛ لوجدنا فجوة نفسية وعاطفية في ذات عمر ابن أبي ربيعة يحاول ملأها بهذا النوع من الضعف، ولا يمكن حصر التجربة النفسية التي يمر بها هذا الأخير سببها ذاتي محض حيث

بطبيعة الحال لا يمكن إنكار ذلك الإغراء الجنسي الذي يصدر من النساء مهما اختلفت طباعهن وشخصياتهن وحتى تفاوت طريقة ونسبة الجمال بينهن تحفز ذلك الفراغ الذي يعيشه الشاعر بين الفترة والأخرى، ويجعله في رغبة مستمرة غير محققة.

ما يميز شعر الغزل بالنسبة لعمر بن أبي ربيعة ليس فقط ما يعنى بالوصف الماجن للمرأة، بل حتى تحسسه لصفاتها التي لا ينتبه لها في العادة الرجال، فيحسها هو ويجعل منها سمة تعزز إغراء المرأة حتى لنفسها، إذ هو يرفع قيمتها بالنسبة لذاتها كما يشاء ويثبطها متى أراد أي أنه يصنع لنفسه من المرأة رغبات جديدة يرغب بها نفسه فيها، حتى يبلغ مراتب التلذذ الجنسي الايروتيكي ويعلو بشخصيته أكثر. لهذا خاصية الخضوع والاستسلام بالنسبة له في الحب لا تعنى بالعذاب المؤذي لذاته، بل على العكس تماما هو يجعل من نمط خضوعه للنساء نمطا جنسيا يحبب فيه لذاته عيش دور المشتاق للحب الدافئ في معظم أوقاته حيث يقول:[9]

فالإيحاءات النفسية في المقطوعات الشعرية مبنية على طاقة جنسية مملوءة بالاستكانة والخضوع لهاته المرأة بيد أنه ليس خضوعا عاديا بل استسلام مرتبط بنقطة الوصل الحميمية الجسدية بالدرجة الأولى كونه" متى سيق الإنسان إلى هذه النقطة التي وصل إليها بالرغم عنه وحتفا عن أنفه، يهيم غراما وولوعا إلى أن يتغزل في آنسة أو خود ناهده ، فيسلوا كل شيء دون ذلك ،ولا يفكر إلا فيها هو مغرم به، ومتصبب به حتى تقوى الرابطة ، وتعظم الأسباب ..فيأخذ في أن يهجر النوم، ويمتنع عن الطعام، وبهمل أشغاله، ويترك ذويه وأقرانه."[10] فتضمحل الرغبات الأخرى كونها لا تلبي ما يطمح إليه الشاعر من الرغبة الأساسية الايروتيكية والتي لم يستطع إزاحتها كون كل حواسه مشدودة نحو الرغبة بقرب هذه المرأة بالذات التي نستشف من خلال الأبيات الشعرية حسن جمالها من جسد مصقول وقوام ممشوق اسر ذهن

والـدَّمع لِلشَّـوقِ متبَـاع فَمَـا ذكـرت إلاّ ترقــرق دمْــع العَــيْن فانســكبَا

لـم يسـله النـأي عنهـا حـين باعـدها ولـم ينـل بـالهَوَى مِنْهَـا الـذي طلبَـا

فهــو كشــبه المعنــىّ لا يمــوت ولا يَحيَــا وقَــدْ جشــمته بــالهوى تعبَــا

عمر بن أبي ربيعة حتى صارت الحياة مملة دون الظفر بهذه الرغبة المحتاج إليها..

تغلب راحة الطلب في الحب على شعر رائد الغزل العمري، هذا الذي نقرؤه انطلاقا من كلماته التي يستعملها وطريقة سرده لمغامراته الغرامية التي وان كانت خطيرة نلحظ منها نوعا من الهدوء

والاستمتاع في طريقة طرح الشاعر لهذه المشاهد الغزلية خاصة منها التي يلعب فيها دور فقير الحب الذي ينشده من النساء، وهذا راجع لخلفيته الاجتماعية حيث" نشأ عمر في المدينة نشأة الترف والجاه، وكان له من الجمال والمال ما فتح له أبواب الملاهي على مصرعيها، وكان شديد الولع بالنساء... مستغلا مواسم الحج للقيام بمغامراته مع النساء"[11] هذا الذي عزز من ثقته بنفسه وأكسبه مناعة في صد هجر أي نوع من النساء، حيث توفرت لديه وفيه كل المتطلبات والمغريات التي تنشدها المرأة من الرجل ... إن مآرب عمر بن أبي ربيعة في الجانب المستكين من الحب لا تعدو كونها تصب في بؤرة واحدة وهي التلذذ بالرغبة في المرأة، حيث ما يجعله مستسلما خاضعا ليس شعور الحزن المنجم عن الفراق والفقد بل هي الحاجة للمتعة الجسدية والتي صار يطمح إليها ويعيشها بمختلف الطرق..

ببساطة إن ما يحدث مع الشاعر من نظم للغزل مقصده واضح وقد صرح به أكثر من مرة للعلن فهو يبحث عن نوع من السعادة لا يتحقق إلا إذا أوقع ذاته في خضم الحاجة للغزل والحب، فالاستكانة عنده نوع من اللذة الحسية العاطفية يستمتع بها حين يحتاج ما يحتاجه من النساء خاصة إن كن ذوات طبقة عالية وكلما كانت شخصية المرأة قوية كردها وتمنعها عنه كلما رغب بها أكثر.

الملاحظ هو عودة رائد الغزل الماجن في معظم الأحيان إلى بعض من النساء السابقات اللاتي قضى معهن ما قضاه ثم انتقل إلى غيرهن، مما يدل على نوع من الضعف والملل يجبره إلى العودة إليهن لقضاء ما يريده منهن من حاجة ومتعة، هو يستمتع حتى في مواقف ضعفه وهذا ليس بالغريب كتصرف ينبع من شاعر نرجسي ومحب لذاته كعمر بن أبي ربيعة فهو لا يرى انكساره قلة حيلة أو خسارة بقدر ما يراه إشباعا لنزواته المتعددة والمتكررة، فهؤلاء النساء لسن حبيباته بل عشيقاته والعشيقة لا يرى فيها الرجل سوى ذلك الإغراء الغامض الذي لا يمل منه أما الحبيبة فهي التي ترافق المحب في معظم أوقاته السعيدة والحزينة ومعظم تقلباته المزاجية.

ما يمكن قوله فيما يخص الشاعر الصريح عمر بن أبي ربيعة، هو أنه في معظم حالاته النفسية لا يبحث سوى عن الجديد الذي من الممكن أن يقدمه له الحب، أو بالأحرى الذي ستقدمه له ديناميكية العلاقة بين الرجل والمرأة في العموم، فبالعودة إلى أبياته السابقة تتضح لنا معالم الاضطراب العاطفي الذي يطغى على جسمه وكل حواسه فلا يستطيع التملص من هذه الرغبة رغم أنها أيضا في الحقيقة عبارة عن حاجة وضرورة، عليه أن يحصل عليها بأي شكل كان وإلا ستتفاقم هذه الأخيرة لما هو أكبر من مجرد

نزوة لم يلبيها وقد نتحجج لهذا التفسير بخوضه مختلف المخاطر في سبيل موعد بسيط أو نظرة خفيفة ولو لوهلة قصيرة لمن أسرت حواسه قبل قلبه. .

ثانيا-الاكتئات في حب قيس بن الملوح

1- الإذعان في حب ليلى بين الحرمان والعذاب

يرتكز الغزل العذري على كوكبة من الانفعالات النفسية التي تشكلها الظروف المحيطة بالمحب، وتحول بينه وبين الفتاة التي شغفته حبا، عندها يقل مقام الوصل بينهما ويعذب بنار تزويج حبيبته لغيره، لتصبح فكرة الاتصال بينهما مستحيلة لا تكون إلا في الخيال، مما يمنع الشاعر من طلب ما هو أعلى من مجرد لقاء بالصدفة أو قرب في الذاكرة ، و"يميل بعض المفكرين إلى اعتبار قصص الحب العذري صورة شاحبة للحب المحروم"[12] حيث تقوم ركائز العلاقة الثنائية في هذا النوع من الحب أي الحب العذري العفيف على العفة في طلب الحبيبة، حيث ليس للشاعر حيلة في الأمر سوى أن يحاول التخفيف من شدة لوعة فقده لمن يحب أو بتذكر صفاتها وتخليد محاسنها المعنوية، كونها في الغالب صارت امرأة متزوجة ولا يصح فيها التغزل الحسي، بالإضافة إلى ذكر ما يمر به الشاعر من عذاب وخضوع مأساوي نتيجة هذا الشوق الذي راح ضحيته العديد من الشعراء أبرزهم قيس بن الملوح الذي" صار عشقه لليلى حديث الناس... وصار شعره على كل لسان.. والعرب تعد ذلك مدعاة للمنع والتفريق والحرمان بين العاشق والمعشوق"[13] ، إن تيمة الخضوع لمأساة النأي عن ليلى موسومة في كل قصائد قيس بن الملوح حتى أضحى معروفا بلقب 'مجنون ليلى' نظرا لولعه وهيامه بها حد العذاب النفسي الروحي والجسدي معا، في سبيل إدراك استحالة تحقق المرجو من هذا الحب..

حيث يقول:[14]

صَرِيعٌ مِنَ الحُبِّ المُبرح والهَوَى وأيُّ فَتَى مِنْ عِلَّةِ الحُبِّ يَسْلَمُ

الشاعر منقاد نحو الهلاك بسبب طلبه حب ليلى انه لا يعيش حالة الهيام هذه في اللاشعور فقط، بل هو مدرك وواع لما يفعله وكأنه مسلم بأن كل ما يمر به من حزن ووهن أمر لابد منه، مادام قد أصابته علة الحب التي لا علاج لها سوى الظفر بما يريده من حب ليلى أي الحصول عليها تحديدا. تغلب عفة الوصف على الشاعر العذري الطبع فهو يحب ليلى حبا كافيا لجعله يتسامى في طرح أفكاره عنها، وذكر

ما يؤرقه بسبب زواجها من غيره وكأنه يتقبل ذلك ويرحب به لأنه يحمي بهذا حبيبته فـ" العذريون يذعنون للحب باعتباره قضاء من الله.. ويصبرون على تباريحه راجين عليه الثواب، بل يرون أنفسهم مجاهدين أبطالا.. فلا يبغون عن هذا الجهاد حولا.. بل يرجون منه المزيد.. فإذا ماتوا.. ماتوا شهداء.."[15] هو وجع يحبه الشاعر كونه السبيل الوحيد الذي بقي له ليتذكر ليلى وماضيه معها وليستمر في حاضره قربها ولو بعدت، فقيس بن الملوح صار مجروح القلب دامي الفؤاد لا يعتبر لذاته وجودا إلا في حضور ليلى..

وكأنه لا طعم للحياة من غير ذكرها تبعا لما يقول: [16]

لقـــد هَـــمَّ قـــيس أن يـــزجّ بنفســـهِ ويرمـي بهـا مـن ذروة الجبـل الصـعبِ

فـــلا غـــرو أن الحُـــبَّ للمَـــرءِ قاتـــل يقلبـــه مـــا شـــاء جنبـــا إلـــى جنـــبِ

أنـــاخ هـــوى ليلَـــى بِـــهِ فَأَذَابَـــهُ ومَنْ ذَا يُطِيقُ الصَّبْرَ عن محمل الحبِّ

فيســـقيهِ كـــأس المـــوت قبـــلَ أوانـــه ويـــورده قبـــل الممـــات إلـــى التـــربِ

ينظم المبدع مقطوعته المعنونة بـ"الحب القاتل" وهو في كامل وعيه متفطنا لما يفعله حد اليقين بأن لا داعي للتنفس من غير ليلى، بل يصرح أنه قد زاره الموت وشرب من كأسه يوم فراقها، فلا يعيده إلى مصاف الأحياء إلا طيف ليلى، لأن" هذه هي حقيقة الحب العذري، تلك الفورة العاطفية التي بدأت فجأة وانتهت فجأة في هذا المدى الزمني القصير"[17] الأمر الذي باغت الشاعر وجعله يستسلم للحب الأفلاطوني النسق ، كونه يرغب في العودة للزمن الأول الذي عهد فيه قرب ليلى وكأنه لن يطلب المزيد بعد هذا فباله يهدأ حين يحلم بها، و يتخيل طيفها يحوم حوله لحظتها تغرق الدموع عيناه إن لامس أثرا منها .

فيذهب قائلا:[18]

مـا بـالُ قلبـكَ يـا مجْنُـون قـد هلعَـا مـن حُـبِّ مـن لا تـرَى فـي وصـلها طمعَا

أدعـــو إلـــى هجرهَـــا قلبـــي فيتبعُنِـــي حتـــى إذا قلـــت هـــذا صَـــادق نزعَـــا

لا أســـتطيع نزوعـــا عـــن مودتهـــا ويصـنع الحـب بـي فـوق الـذي صـنعَا

وزَادنِـي كلفـا فِـي الحُـبِّ أنـي منعـت أحـب شـيء إلـى الإنسـان مـا منعَـا

ألم الحاجة في فقدها وعذاب تحسس أمر منها يفجر في الشاعر بعدا نفسيا مملوءا بالحزن والاستسلام لأحاسيس الحب التي لا يستطيع التملص منها أو إخفاءها، بل تتزايد شدة طلبه لذكرى ليلى كلما فكر فيمن يجالسها ويملئ وقتها غيره، فهو إذعان للفقد والعذاب الذي لا مناص لقيس بن الملوح منه، فضعف المجنون تجاه ليلاه ليس بالغريب فالشعر العذري ينطلق من " حب روحي يتعلق فيه العاشق بمحبوبة واحدة، يرى فيها مثله الأعلى الذي يحقق متعة الروح، ورضا النفس، واستقرار العاطفة ، وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة تقف عندها آماله، وتتحقق فيها أمانيه، فهي الهدف الذي يطلبه، والغاية التي يسعى إليها، والأمل الذي يرتجيه"[19] لهذا جلي كمية الحزن المأساوي الذي يسقطه قيس بن الملوح في جل قصائده التي تشير قراءتها النفسية إلى كمية الحرمان التي يعيشها؛ فلا حل أمامه سوى أن يزيح بعضا من همومه عن طريق إبداعه الشعري ... والملاحظ كم أن حبه لليلى يزداد مع مرور الوقت فصورتها دوما في خياله ترافقه حيثما حل، فالفرق بينه وبين عمر بن أبي ربيعة هو أن هذا الأخير يعيش متعة إضافية عن طريق الضعف الذي يظهر فقط كي يزداد حبا لذاته ونرجسية أكثر من ذي قبل عند عيشه هذا الاحتياج، أما مع مجنون ليلى فالأمر تصاعد لمسألة حياة أو موت تتزايد خطورتها مع مرور الوقت فمحور حياته مبني على فتاة واحدة وهي ليلى دون سواها، فلا بديل لها ولا يمكنه أن يعيش ما عاشه معها مع غيرها لذلك هو عاشق لنوع من الوهم العاطفي يجعل من الأنا الخاصة به تذوب وتنصهر في الآخر الذي تمثله حبيبته ليلى لهذا أشعاره الغزلية ليست غزلا يلاطف به ليلى كامرأة بقدر ما هي أبيات شعرية تعظم وجوديتها وتضمحل أمامها ذاتية الشاعر التي حسبه هو لا معنى لها في الأساس لولا حضور من تخلق له شعور الحب الطائع.

إن سيكولوجية العاشق المجنون تتعلق في الغالب بأحداث تراجيدية يحب ويألفها شعراء النسيب العفيف فـ" علاقة رجل بامرأة واحدة يبقى على حبها زمنا طويلا أو يبقى على حبها مدى الحياة هي حادث لا يتكرر كل يوم ولا بد فيه، من عامل الشخصية التي تفرز المرأة من سائر النساء، ويصح أن يقال إن هذه العلاقة – إصابة حب– كسائر الإصابات التي يتعرض لها الإنسان فتطول أو لا تطول"[20] وفي حالة قيس بن الملوح قد طالت إصابته بحب جعله يعيش حالة سيكولوجية من الدمار العاطفي أثرت عليه حتى جسديا ، هو لا يستمتع بهذه الحالة بل يبحث عن حل لها من خلال شعره الذي هو بمثابة

يوميات له يدون فيها الأماكن التي يحل بها فيرى طيف ليلى ويصف كل ما يصيبه من مصائب وفواجع يوميا لأنه يعلم أن شعره وأخباره تصل إلى حبيبته فكأنها رسائل موجهة لها دون غيرها..

الخاتمة والنتائج:

إن النتائج المتحصل عليها واضحة لا تحتاج تعمقا أعمق، كون ما تقدمنا به من دراسة تناقش تيارين متباينان في الشعر؛ بل اتجاهان مختلفان تمام في نمط العيش وطريقة الحب، فالأول ينطلق من مجتمع مدني متحضر منبهر بتمازج الحضارات الغير عربية مما فتح له طرق اللهو و الفضول حول عيش العلاقات؛ لهذا سيكولوجية عمر بن أبي ربيعة لا تخضع لمبدأ الالم أبدا بل تحيد منها إلى مبدأ اللذة وبها يعالج الشاعر ما يمسه من أزمات أثناء طلبه للحب، على العكس تماما كان الوضع مع قيس بن الملوح؛ فقد عاش حبه في كنف بيئة بدوية لا تعرف من الحب سوى الألم والحرمان –كما نرى نحن– فالشعر لو مررنا على ديوانه كاملا لما وجدنا أي نوع من الراحة و التوازن النفسي، بل نجد معاناة لا حل لها فحتى المتلقي لشعر مجنون ليلى لا يجذبه سوى شدة الألم و الخضوع الذي قدمه الشاعر لحالته النفسية المضطربة جدا، فمثلا مفردات الاشتياق و التوسل مدسوسة في معظم الأبيات فلا نجد حضورا لشخصية الشاعر مقارنة بحضور التي يخاطبها بل ينعدم في كثير من القصائد. ولو أننا نرجع في كثير من الأحيان عملية الإبداع عند الشاعرين إلى نوع من الإزاحة النفسية للتخلص من مشاعرهما المقموعة لاحظنا المتعة والسعادة عند ابن ابي ربيعة وهو يتخلص من أزماته النفسية، والألم والتوتر النفسي عند قيس بن الملوح قد ازداد أكثر من ذي قبل...

استجلاء لما تم العروج عليه من محطات في شعر الاستكانة والخضوع في الحب عند كل من رائدي الغزل العربي بنوعيه الماجن والعفيف نخلص إلى ما أن:

– الإذعان في الحب أمر لا مناص منه في الشعر الغزلي هذا ما وضحه شعر كل من عمر بن أبي ربيعة و قيس بن الملوح على الرغم من تباين مدرسة الغزل عند كل من الشاعرين.

– أن عمر بن أبي ربيعة يتفاعل ايروسيا وفق رغبات عاطفية خانعة للحب، غير أنه لا يرضخ في الحب قصد الحب، بل بغية كسب درجة جديدة من المتعة الحسية والمعنوية معا تلك التي يستقيها من المرأة.

– أن ما يعيشه صاحب المدرسة العمرية من رغبة مكررة للانصياع لهمسات النساء ينبثق من فراغ نفسي يعيشه هذا الأخير بين الفترة والأخرى، أي أن تحقيقه للمتعة العاطفية الحسية لا يصل دوما إلى

مرحلة الذروة وإن بلغها في بعض الأحيان يصبح الشاعر في حالة فراغ تجبره على البحث مرة أخرى عن هذه اللذة الحسية.

-أن قيس بن الملوح لم يعش من الاكتئات في قصائده الغزلية سوى الجانب السلبي منه على عكس ما كان في شعر عمر بن أبي ربيعة، حيث بني على عذاب وفقد عاشه الشاعر طيلة حياته بعيدا عن المجون في طلب قرب ليلى.

- يمر مجنون ليلى بحالة من الفقد العاطفي نظرا لحالة الحب المهووس الذي يعيشه مع ليلى، حيث جعل منها إسقاطا لكل أفراحه وهواجسه، بل حتى تلك الإزاحة النفسية التي يزيح بها عن مأساته في الحب فعلها عن طريق قصائده الغزلية التي يبث فيها أحلامه ورسائله لحبيبته.

-أن سيكولوجية كل من الشاعرين في الانصياع للحب تتمايز بتمايز نوع الرغبة والحاجة لكل منها، فالأول يخضع للمرأة كأنثى مغرية تحديدا وما تقدمه أما الثاني فيخضع لسلطان الحب الذي جعل له إسقاطا واحدا لا يتغير أبدا وهو حبيبته ليلى لهذا ظل متمسكا بها حتى النهاية.

هوامش:

[1] عبد العزيز العسكر: شعر الغزل ونظرة سواء، مكتبة المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، د.ط، د.ت، ص17

[2] بسام موسى عبد الرحمن قطوس: المنهج النفسي عند النقاد المصريين المعاصرين، الجامعة الأردنية، الأردن، د.ط، 1984، ص27

[3] عبد العزيز العسكر: شعر الغزل ونظرة سواء، ص36

[4] ينظر: عبد الله أنس الطباع، الحب والغزل بين الجاهلية والاسلام، دار النشر للجامعيين، بيروت، د.ط، 2015، ص14

[5] المرجع نفسه، ص10

[6] عمر بن أبي ربيعة: ديوانه، تحقيق: محمد فايز، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996، ص38

[7] عبد العزيز العسكر: شعر الغزل ونظرة سواء، ص17

[8] سيد صديق عبد الفتاح: العشق والغزل في القرن19، دار الأمين للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1997، ص23.

[9] عمر بن أبي ربيعة: ديوانه، تحقيق: محمد فايز، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996، ص59

[10] المصدر السابق، ص19

[11] ينظر: عبد الحكيم الزبيدي، خصائص شعر الغزل عند عمر بن أبي ربيعة " الرائية أنموذجا"، دار ناشري للنشر الإلكتروني، د. ط، 2007، ص13

[12] ينظر: أحمد سويلم، مجانين العشق العربي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2006، ص6

[13] المرجع نفسه، ص125

[14] قيس بن الملوح: ديوانه، تحقيق: أبي بكر الوالبي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، ص30

[15] أحمد سويلم: مجانين العشق العربي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر،ط1، 2006، ص6

[16] قيس بن الملوح: ديوانه، ص36

[17] ينظر: صلاح عيد، الغزل العذري حقيقة الظاهرة وخصائص الفن، مكتبة القاهرة، مصر، ط1، 1993، ص4

[18] قيس بن الملوح: ديوانه، ص39

[19] يوسف خليف: الحب المثالي عند العرب، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ط، 1998، ص11

[20] عباس محمود العقاد: شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، ط2، 1951، ص43